Protected

ابَّير التورس، قريتي الأولى

بقلم المرحوم/ مُحمد بن أحمد بن الميدَّاح

ترجمه مِن الفرنسية إلى العربية، عز الدين بن كْراي بن أحمد يورَ

يعودُ دخولي إلى المدرسة النظامية إلى بداية شهر مارس مِن سنة 1963، في اليوم الثاني أو الثالث من الشهر، لم أعُد أتذكر، أما الباقي، فأتذكره بدقة كما لو أنه حصل بالأمس، كان ذلك في قرية "ابير التورس" الواقعة على بعد 12 كيلومتراً غربَ "المذرذرة".

لقد اتخذ والدِي قرارَ تمدرُسي بشكل انفِرادي، بعد أن استسلم لضغوط قوية مارسها عليه بعض أصدقائه، وبالأخص الأمير محمد فال بن عمير، الذي لم يفتَأ، مِن مَنفاه بالمغرب، يبعث إليه برسائل مكتوبة وبتوصيات شفوية، يُوعِزُ إليه فيها بتحضيري لمُستقبل مُختلف عن مُستقبله...

لم يكن مَن هم حولِي يُوافقون على هذا القرار، وخاصة عمتي المرحومة: مريم بنت امْحَيحَمْ التي تبنَّتني منذ طفولتي الأولى واعتبرتني مِن شأنها الخاص. لقد سبق اتخاذَ هذا القرار نقاشاتٌ صعبة وطويلة. كان مُخيمنا يتنقل حول "أبي تلميت"، وبالتحديد بينَ بِئْرَيْ: "وحيتُو" و"تِيفِكِّين... "

كان عليَّ إذن أن ألتحق بمدرسة "ابير التورس" حيث تُوجد أحد أقدم المدارس الريفية. لم يكن اختيار "ابير التورس" وليد الصدفة، فقد كان غالبية أهلي وأقاربي يُقيمون هناك منذ عدة عقود، بعد أن استقروا طويلاً عند "احْسَيْ همَّادْ" و"احْسَي عَمِّي". أثارت لحظةُ رحيلي مشاهدَ مُفعمةٍ بالمدامع والعناق، كما يحصل في أشهر الفِراقات التي شهدها هذا القرن...

ما زلت أتذكر نساء الحي، وفي مقدمتهن عمَّتي، يركضن حلفَ الجَمل الذي كان والدي يأخذني عليه، وهن يُلوِّحن بأيديهن اليمنى، في إشارات دائرية وأفقية، كانت تلك طريقتهن لتحصيني بتعويذات مُرتجَلة وإلقاء نظرة أخيرة على شخصي الصغير وهو يُغادر إلى العالم الآخر ...

استغرقت الرحلةُ أربعة أيام ... في اليوم التالي ليوم وصولنا، اصطحبني والدي إلى المدرسة، وكانت تبعد كيلومتراً ونصفاً مِن الحيِّ الذي نزلنا فيه...

كان الحَيُّ الذي نزلنا فيه، والمُسمَّى "آسْكَيرَهْ"، يتكون من نحو عشرين خيمةً، بما فيها خيمة جدتي المَهيبة: السيدة/عيشَ بنت مانُو ...كانت تسكن مع "عيشَ" والدتُها: المعلومة بنت الميداح، وهي شخصية مرموقة في بلاد "اترارزة"، معروفة بتقواها واعتنائها بالمُحتاجين...

لقد اختارُ مُؤسِّسُو "آسكَيرَه" هذا المكان البعيد عن القرية، لتفادي رائحة الدخان، وللاستقرار بشكل دائم، بعد فترة طويلة من الترحال، دون الانقطاع عن المُتَع التي توفرها الحياة البدوية...

Protected

كانت "آسكَيرَه" معقلَ اثنَين بارزَين من أبناء الشاعر الشهير والشخصية المتعددة الجوانب: امحمد بن أحمد يورء وهما: أحمدو بابَ وشماد..

أما القرية الكبيرة (لِفريكْ كما يُسمَّى محلياً)، فكانت تتكون من نحوِ ثلاثين منزلًا مُشيَّدا وعددٍ قليل من الخيام. هنا، كان يقيم القاضي الشهير، قاضي المذرذرة الفخري والعالم الكبير: محمذن بن محمد فال المعروف ب"امَّيَيْ."

في المنتصف بين "آسْكيرَه" و" لِفريكْ"، إلى جهة الشرق قليلاً، كان يوجدُ بيت رماديٌ كبير، يقع على مُرتفع من الأرض، ويُطل على بعض الخيام، التي لا يخفى ارتباط أصحابها بسَيِّد المكان.

إنه مَجالُ أحمد سالم بن سيدي بابَ، وهو شخصية محلية مرموقة، قيل إنه يمتلك قوى باطنية، بما في ذلك القدرة على ترويض الجن، وغيرها من الظواهر غير المرئية.

تُوجد المدرسة عند المدخل الجنوبي لِلقرية "لِفريكْ"، وهي عبارة عن منزل مُكون من غرفتين تم بناؤه في الأصل ليكون مسكنا لعائلة من عدة أفراد. إنه منزل "أهل القَرَشي ..."

كان يدير المدرسة مُعلمُ اللغة الفرنسية: أحمدو يسلم بن معاوية، وكان رجلاً مهيبًا، يمشي في انحناء، تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، على طريقة عظماء الصحراء ... كان أحمدُّو يسلم يُدرِّس القسم الابتدائي الأول (CE1)بينما كان يُدرِّس القسمَ التحضيري الأول (CP1) شابٌ يُدعى "فال عليون"، وكان يُدرّسُ اللغة العربية في القِسمَين كْرَّاي بن أحمد يورَ، وهو شخصية ثقافية ودينية كبيرة في المنطقة .

بعد أن قدَّمني والدي للمدير، همس لي ببِضع كلمات تشجيعية ليختفي ويتركني وحدي في مواجهة المصير. لم أكن مستعدًا بما فيه الكفاية لهذا الاختبار، لكنني لم أشعر بالخوف في تلك الصبيحة.. ربما كنتُ مُطْمَئِنّاً لوجود أخي الأكبر، الذي كان يُلَوِّح لي بيده من خلال نافذة الفصل المجاور..

كتب مدير المدرسة شيئًا ما في دفتر ذي غِلاف أزرق قبل أن يُدخِلني في فصل المُبتدَئين ...

كان في الفصل حوالَي ثلاثين طفلاً في سِنِّي، يجلسون بهدوء على مقاعد خشبية صغيرة. كان درسًا للغة العربية، وكان المعلم - كْرَّاي – يُقابلهم وهو يجلس على كرسي مرتفع. حدَّقت فيه، منبهرًا بقامته المهيبة، ووجهه المشرق، وملابسه الأنيقة. بمجرد النظر إليه، تُدرك أنه يضطلع بمهمة أكبر بكثير مِن مجرد تعليم هؤلاء الأطفال الصغار...

كان التلاميذ ينظرون إليَّ وكأنني أتيت من عالم آخر. لقد شعرت ببعض الازدراء في نظراتهم الساخرة، ولكي أتوارى عن انتباههم، سرعان ما قصدت المكان الذي حدده لي المعلم. بدأت الحصة قبل وصولي. وكانت حول أسماء الأصابع الخمسة باللغة العربية...

جعل كْرَّاي- الذي استغربتُ من اسم "أستاذ" الذي يطلقونه عليه – جعل التلاميذ يكررون الأسماء، وبعد مدة سألهم إذا كان مِنهم مَن حفظها عن ظهر قلب. لم يتسارع التلاميذ إلى الإجابة ... أما أنا، فكنت قد

Protected

حفظت كل تلك الأسماء، من المرة الثالثة، لكني كنت أشعر أني غيرُ معنيٍّ بما يدور مِن حولي، لذلك التزمت الصمت وأنا أتساءل في داخلِي: أين تكمن صعوبة حفظ خمس كلمات تم تكرارُها أكثر من عشرين مرة؟ أخيرًا، رفع تلميذٌ يدَه، فاثنان، ثم ثلاثة... ثم أربعة... كنتُ الخامس! لقد أثار رفعُ يدي فضول جميع التلاميذ، والتفتوا كلهم نحوي ...سألني "كُرَّاي": هل حفظتها؟ فأجبته بصوت واثق: "نعم"،... وعدَّدتُ أسماء أصابع اليد الخمسة واحدًا تلو الآخر، بدءًا ب"الإبهام" إلى "البنصر" مرورًا بـ"السبّابة" و"الوسطى" و"الخنصر.."

عندها، بادرَ "كُرَّاي" بالنهوض، وجاء لِعندي، وأطال في تهنئتي، وتنبَّأ لي بمستقبل مشرق ...ثم التفت إلى التلاميذ، ولامهم كثيراً، واتخذني مثالا، أنا الذي هذا أول عهدي بالفصول الدراسية!

بعد هذا الإنجاز - الذي لم يرُقَ على ما يبدو لبعضٍ من زملائي - رنَّ الجرس، فإذا بالجميع يُسارعون للخروج، لقد فعلت الشيء نفسه، ولكن بدلاً من البقاء في ساحة المدرسة، ظننتُ أن كل شيء قد انتهى في ذلك الصباح، ورجعتُ أدراجي إلى "آسكيرَه". أخذتُ في طريقي أردِّدُ أسماء الأصابع الخمسة بصوت عالٍ، وأنا أفكر بارتياح أنه إذا كانت المدرسة هكذا، فليس هناك ما يدعو للشكوى ... ولكن صوتًا داخليًا حدثني أن ذلك يبدو مِن الجَمال بحيث يصعب أن يكون حقيقة...

فجأة، انتبهت من أفكاري بسبب صرخات حادة، استدَرتُ لِأجد خمسة أو ستة مراهقين أشِدَّاء يركضون صوبِي وهم يطلقون التهديدات... لقد خفتُ للغاية لأنني، من الناحية الجسدية، لم أكن مُهيَأً لممارسة العنف... وحيث إنه لم يكن هناك ما يُعابُ عليَّ في هذه المرحلة من حياتي الجديدة كتلميذ في المدرسة، فقد انتظرتهم في ثبات، وقلت لنفسي: "ماذا عساهم يريدون مني؟" لم يدم الانتظار طويلاً، فقد وجدت نفسي مُحاصراً مِن قِبَل مَن تم تكليفهم بخَطفي، وكانوا سعداء لأنهم تمكنوا من إنهاء هروبي، "أنت هارب"، قالوا لي بفم واحد، "أنت مُتغيب عن المدرسة... السيد "اِفَّالْ" طلب منا أن نُعيدك حياً أو ميتاً، وسترى "!

أمام دهشتي، أوضحوا لي أن فترة الاستراحة قد انتهت، وأن العقوبة على الخطأ الذي ارتكبته لا تقل عن "أن يتم أخذي من قبل أربعة". لم أفهم أي شيء مما يقولون، فقد كان ذهني شارداً في مكان آخر... في الطريق، جعلت أستعيد فيلم الحياة الهادئة والسعيدة التي عشتها بين "تيفيكين" و"وحيتو"، و"إلغام"و"حابيبَلَّشْ"، و"القبة"... وأماكن أخرى تذكّر بالحرية المسلوبة!...

أمام الفصل، كان السيد "فَالْ" ينتظرني، وهو يرتجف من الغضب، استقبلني بوابل من الإهانات من كل نوع، لم أفهم شيئاً مما كان يقوله، لكن بمجرد رؤية وجهه المتجهم، والعصا الكبيرة التي كان يحملها في يده اليمنى، أدركتُ أن الأمرَ لم يكن ترحيبا .... كان الأطفال في الفصل قد تجمعوا حولي، وهم يتطلعون إلى العقوبة التي ستُفرض على "البدوي الصغير" الذي خطف منهم الأضواء خلال درس العربية.....

"مُدَّ يدَك"، قال لي المعلم! كان المتفرجون يقومون بدور الترجمة، وبدون أية ممانعة، تركته ينهال على يديّ واحدة تلو الأخرى، مع الحرص على استهداف الأصابع (الأصابع مرة أخرى!) ليُلحِقَ بي أكبر قدر من الألم ...وبعد أن بلغ مُبتغاه من عقابي، أشار إليّ بالدخول والرجوع إلى مكاني في الفصل...

Protected

حتى يومنا هذا (بعد ما يقرب من نصف قرن على هذه الحادثة)، ما زلت عاجزًا عن فهم المنطق التربوي أو التأديبي، الذي بمقتضاه يسمح مُعلمٍ لنفسه بإرهاب تلميذ، في صباح أول يوم دراسي له، دون أي هدف واضح، إلا أن يكون سعيَه لقتل رغبته في التردد على المدرسة...

لحسن الحظ، سنحت لي الفرصة لاحقًا للحديث عن ذلك الصباح مع السيد "افَّالْ"، وعن ذكريات أخرى أكثر مُتعةً. كان ذلك في روصو، عام 1993، خلال مهمة تفتيشية قمتُ بها في مدرسة "بِدَّه"، حيث كان أول معلم عرفته للغة الفرنسية يُدرّس صفًّا في السنة الرابعة...

لم يكن قد تغيّر... فُوجئت بذلك، لأنني - وأنا من كنتُ تلميذه قبل ثلاثين عامًا - قد بدأتُ أشعر بثقل الزمن في أوجاعي وتجاعيدي وتساقط شعر رأسي...

أما هو، فكان لا يزال شابًا نشيطًا وسلطويًا. كان يرتدي سروالًا رماديًا، يكاد يتطابق مع ذلك الذي كان يرتديه باستمرار في قرية "ابير التورس" عام 1963... أهُو نفس السروال؟ من الممكن جدًّا، حيث أرى أن المعلمين القُدامى محاطون بأسرارٍ يصعُب فهمُها!

بعد العقوبة، عدتُ إلى مقعدي، وأنا في ذروة الإحباط، بحيث إني لم أحاول فهم أي شيء من الدرس، الذي كان حصة قراءة، لكل طالب فيها كتابه الخاص.

كان بعض التلاميذ يقرأ بطلاقة، سمعتهم جميعًا يتحدثون عن "تُوتُو"، وهو اسم لم يكن يعني لي أي شيء، لأعرف لاحقًا أنه تلميذٌ أسطوري، كسول، وغير منضبط، نُسجت حوله مجموعة نصوص "مامادو وبينيتا."

بحلول الظهيرة، توجهتُ إلى "آسكيرَه" بصحبة أخي الأكبر وتلاميذ آخرين، وكلي ذهولٌ وعجزٌ وارتباكٌ. لم يفارق ذاكرتي مشهدُ ذلك الصباح، رغم تشجيع ونصائح رفقائي الأكبر سنا. في المنزل، انعزلت في زاوية وأطلقتُ العنان لأحلام اليقظة، التي قطعها أولئك المُطاردون...

في فترة ما بعد الظهيرة، كان عليّ العودة للقاء السيد "افَّالْ"، بجفافه وجفائه. وددت أن يكون في الفصل مُعلّم اللغة العربية، لكن سرعان ما خاب أملي: لم تكن دروس هذه اللغة المألوفة تستغرق سوى خمسٍ وأربعين دقيقة، بواقع ثلاث حصص أسبوعيًا... يا لها من خيبة أملٍ! لم يكن المعلمُ المحبوب "كْراي بن أحمد يورَ" مُعلّمي الرئيسي، فكان عليَّ التعامل مع جلَّادي في صباح ذلك اليوم، بتقلبات مزاجه غير المنضبط ...

كانت الأيام الأولى صعبةً للغاية، لكن شيئًا فشيئًا، أصبحت العقوبات أقلّ، وصارت الدروس في المُتناول، وبدأت أشعر أني تلميذ مثل الآخرين، وذلك بفضل دروس التقوية التي قدّمها لي أخي الأكبر وبعض زملائه في الدراسة. وهكذا، وفي أقل من شهر، تمكنتُ من إتقان الأبجدية اللاتينية (كنتُ قبلها أعرف القراءة والكتابة باللغة العربية)، وأصبحت المقاطع الصوتية روتيناً بالنسبة لي، حتى أنني تشرفتُ بتوصيل دفاتر التمارين إلى منزل الأستاذ "فالْ" مرتين أو ثلاث مرات!

Protected

كان تحسني فعلياً، لدرجة أنه بحلول نهاية شهر يونيو، أي أقل من ثلاثة أشهر بعد صباح "الأصابع" ذاك، حصلت على المرتبة الثانية في امتحان التجاوز للصف الأعلى. لقد ملأ نجاحي الباهرُ بالفخر مشرفَ المدرسة: المختار بن المأمون، الذي كان لديه، دون أن أعلم، صلات خاصة بعائلتي. كان شخصًا متحفظًا ولم يسبق أن أظهر لي أي اهتمام خاص، لكن الروابط القبلية خانته في ذلك اليوم، فبمجرد أن نطق المدير اسمي في صَدارة القائمة، صرخ بأعلى صوته وهو يقذف المسطرة المسطحة عدة مرات في الهواء قبل أن يمسكها (كما يُفعل بالبندقية)، متبعًا في ذلك تقليداً مألوفاً في أوساط المحاربين منذ قديم الزمان ... إن هذه فرصة سانحة لأشيد به كما يستحق، وأدعوَ الله أن يتقبله في كريم جناته.

وهكذا، انتهى العام الدراسي الأول على خير...

ما زلت أذكر أسماء بعض تلاميذ المدرسة، كان بعضهم معي في الصف الأول الابتدائي، في حين كان آخرون في الصف المجاور، مثل : إبراهيم بن أمينو وبدنَّا بن سيدي، وهما الآن موظفان حكوميان ساميان – محمذن بَتَّه والمبارك وحامد ابنا الخال، مُفتشو تعليم - محمذن المعروف باسم "امذَين" بن ببهَّا، مهندس – النَّم بم حمدَن، أستاذ علوم بارز - محمذن كَرْ، إطار مصرفي - محمدن بن محفوظ، الذي أصبح (كما قيل لي) رجل أعمال – إمَّدْ بن سيدي محمد، معلم - محمد الأمين بن احمَيِّدْ، رئيس الفصل الذي غاب عنِّي ذكرَه - أحد أبناء أحمدو مامين (حِمَّوْ أوغيره، لا أتذكر...) وتلامذة آخرون ... كان هناك أيضًا نخبة من أمثال أخي "الرَّجَّالَه"، الذي أصبح أستاذاً في المرحلة الثانوية؛ وأحمد بن محمودي، موظف حكومي وأديب شهير؛ ومحمد محفوظ بن معاوية (المعروف الآن بمحمد)، وهو ابن مدير المدرسة، الذي ارتقى جميع المناصب الإدارية؛ والمرحوم محمد بن اعبيدمو، المعروف بمكره وتشويقه، ومحمد بابا بن أحمد يورَ، شخصية سياسية بارزة، شغل منصب أمين عام فرع حزب الشعب الموريتاني في المذرذرة، وآخرين نسيتُ أسماءهم واحتفظت في الذاكرة بملامح وجوههم...

كثيرًا ما كان السيد "فالْ" يتركنا تحت إشراف شابٍ راقٍ، يتحدث الفرنسية بطلاقة، ولإشغالنا خلال فترة إشرافه، كان هذا الشاب يطلب منا تارةً الغناء وتارة القيام بتعابير وجهٍ مُضحكة، وقد كنا نجد دروسه في غاية التشويق. وهذا الشاب ليس سوى ببَّها بن أحمد يورَ، الذي سيحظى بمستقبل باهر سينعكس نفعه على كافة مقاطعة المذرذرة ...لا أدري إن كان ببها حينَها طالبًا في الصف المجاور (CE1) أو أنه كان قد انتقل للدراسة في نواكشوط.

في تلك الفترة، كان ابير التورس مركزًا ثقافيًا متقدمًا مقارنة ببقية البلاد، وكان أفضل بكثير من "البادية" المتواضعة حول أبي تلميت، والتي كنت قد غادرتها لتوي ... في ابير التورس، رأيت للمرة الأولى أكثر من سيارتين متوقفتين، حتى أني تمكنت من الاقتراب منها دون خوف، ومعاينتها عن كثب عبر النوافذ. قبل هذا الاكتشاف، كانت معرفتي الميكانيكية تقتصر على مشهد شاحنة T 46 وهي تمر على طريق بوتلميت-لخشيم-روصو، مثيرة سحابة ضخمة من الغبار. وفي ابير التورس أيضًا، شممت لأول مرة رائحة "مارُو طلالَه" (الأرز المُحمَّر)، الذي كانت تحضره الموهوبة "خِجَّه" بانتظام دقيق ... كما تعرفت هناك على

Protected

بعض الأطباق التي لم تكن تناسب ذوقي، لكنها أثرَت مفرداتي بتعابير "حضارية" كنت أعيد استخدامها خلال العطلات الدراسية "لِحرق" أطفال البادية.

مِن هذا المُلتقى والمعقل الثقافي الكبير، ما زلت أحتفظ في الذاكرة بأسماء ووجوه بعض الشخصيات الذين تجاوزت شهرتهم الثقافية والاجتماعية حدود دائرة الترارزة بكثير...

ما زلت أتذكر تماماً القاضي محمذن بن محمد فال المعروف بلقبه "اِمَّيَيْ"، كان شيخًا جميلاً، مُشرق الوجه، أقرب إلى التحضر، وكانت خيمته الفخمة المنصوبة قرب منزل إسمنتي، تَعجُّ على الدوام بالزوار القادمين من شتى أنحاء المنطقة ومن خارجها، لم تكن مسؤولياته الدينية والاجتماعية الجسيمة تشغله عن الاعتناء بتلك الجموع المتنوعة من الزوار...

في محيط خيمته وعلى بُعد أمتار قليلة منها، كان بالإمكان شم رائحة عطور فاخرة، تفضل كثيراً "دانكوما" و"كيكي 44"، و"ماتي كَيْ"، و"جَولِي اسْوار" و"هيليوتروب بلان" وغيرها من العطور التي كانت شائعة حينها في الأوساط الأرستقراطية...

اعتدت أنا وأصدقائي أن نحوم حول تلك الخيمة لنُنقّيَ ملابسنا من روائح متعددة التصقت بنا بعد حصة دراسية في القاعة الصغيرة التي كنا نُحشَر فيها كما في عُلبة السَّردين ...

وذات يوم، وبينما كنت ألعب مع بعض الأطفال بالقرب من دكان "أحمدو بمبَ"، أرسل القاضي من يُناديني. وعندما جئت إليه، وأنا في مُنتهى الخجَل والتوتر، وضع يده على رأسي وأدخل في جيبي أول مئة افرنكٍ أمتلكها في حياتي، وهمس لي أنني لست غريبًا في ذلك المنزل، كانت بجانبه زوجته الشهيرة "منت باهنينَ"، التي حَيّتني بحرارة وطلبت مني أن أبلغ سلامها لجدتي المعلومة.

لقد أدركت لاحقًا – بل لاحقا جدًا – القيمة التاريخية والثقافية والأدبية لهتين الشخصيتَين الاستثنائيتَين...

عندما ودّعت القاضي، كان فكري قد امتلأ بمشاريعَ صغيرة بدت لي سابقًا في حيز المستحيل، وقد وجدت فجأة تمويلها دون تخطيط مسبق، قفزت من فوق الحائط متخلصًا من رفاقي في اللعب، وانطلقت مباشرة نحو دُكان "امَّيلِيد"، الواقع قُرب البئر في غرب القرية، لأتولى إدارة "ثروتي" دون تقاسم وفي هدوء تام...

أتذكر أنني رافقت جدتي "عيشَ بنت مانُو" مرتين لِزيارة الولي المختار ولد محمودن، الذي كانت شهرته الأسطورية معروفة حتى في نواحي أبي تلميت، وخاصة في المُخيم الذي كنت أعيش فيه. كان رجلاً مسنًا، متوسط القامة، ودودًا، بسيطًا، وغير ذي تكلف، كان يحظى بوضوح بإعجاب وتقدير المحيطين به، وكانت خيمته الواسعة تعج بالزوار من مُختلف الأطياف...

مِن بين الشخصيات الأكثر احترامًا في القرية، يبرز أحمد بن الفُظَيل، كان المعلمون يُوصوننا بعدم اللعب بالقرب من خيمته خشية إزعاجه، إذ كان مُتقدماً في العُمر.

Protected

أتذكر يوم وفاته جيدًا، كنت حينها في الصف الثاني من المرحلة الابتدائية، وقد أعلنت المدرسة يومًا للحِداد عليه، لقد كنت من القلائل في "ابير التورس" – إن لم أكن الوحيد - الذين لم يشعروا بحزن كبير لرحيل هذه الشخصية البارزة...

كان هناك أيضًا شيخ آخر، يُعرَّف بأنه ابن أحد رفقاء وتلاميذ امحمد بن أحمد يورَ. وكان يُدعى "ول والد"، وكان أطفال القرية يتعلمون عنده القرآن الكريم، إلى جانب الذهاب للمدرسة. وكانوا يقولون إنه سريع اللجوء إلى العصا...

لا تزال ماثلة أمام عيني صورة "أحمدو بن التاه" وهو يعتلي مطيتَه الجميلة. كان شيخًا وسيمًا، لحيته مصبوغة باللون الأزرق نتيجة الإفراط في استخدام "النيلة". وكان يلُفّ عنقه بعمامة جديدة من قماش "سافانا"، تُخفي بالكاد مجموعة كبيرة من التمائم موضوعة بإتقان داخل أغطية جلدية.

أود هنا أن أقوم بذكرٍ خاصٍ لمُنشد القرية الودود جدًا " بَدِّي" وصاحب أنشودته الشهيرة: "هُبُّولو امباركه انديْ، آكْ سنانْ، آكْ منانْ، آكْ لانْ... "!

كان شخصاً مسالمًا وممتعًا، يجوب شوارع القرية مردِدًا مدائح نبوية بلغة عربية تتخللها تعبيرات وُولفية... وكان الناس يرونه شخصية صوفية غامضة تتجافى عن "الظهور"، كما يُقال في مصطلحات التصوف الموريتاني.

في "آسكيرَه"، تمكنت في النهاية من التعرف على الجميع، مما خفَّف قليلًا من خجلي الفطري.

كنتُ غالبًا ما أزور خيمة العميد أحمدو بابَ بن امحمد بن أحمد يورَ، كان شيخًا متقدمًا في السن، وكان مجالُه، الذي يشغل مساحة واسعة في وسط الحي، يُثير الإعجاب بنظافته وتنظيم أثاثه... كانت ساحته تُنظَّف باستمرار على يد امرأة فاضلة تُدعى "بَيَّ بنت اجْمَيِّعْ"، كانت بارعة في فن غربلة الرمال واستخراج قِطع الفحم وبقايا الخشب البالي...

كانت "بَيَّ بنت اجْمَيِّعْ" سلطوية الطباع، فلم يكن أي طفل في القرية ليجرؤ على إظهار أي شكل من أشكال قلة الأدب تجاهها أو تجاه أي شخص آخر بوجودها، ولم يكن ذلك متأتياً من فراغ، فقد كانت طبيبة الأسنان في القرية.

كانت تتولى عمليات قلع الأسنان طواعيةً، وبنفس الحماس، سواء كان هدفها التخفيف عن طفل يتألم أم معاقبته لسوء سلوكه تجاه والديه أو أي شخص بالغ، كانت أداةُ "بَيَّ" سكيناً قديمًا غير معقم، أما كرسي عملها فلم يكن وقتها سوى صدر "الضحية" المعنية!

لا أزال أتذكر حين قدّمت لي مساعدتها ذات مرة، فقد كنتُ أعاني من أنياب لبنية عنيدة بدأت تعيق نموّ أسناني بشكل طبيعي... وفي ذلك اليوم، لم تصمد تلك الأنياب أمام احترافية "طبيبة الأسنان"، لقد سال الكثير من الدماء، ولكن لا بأس!

Protected

كان شمَّاد بن امحمد بن أحمد يورَ هو الشخصية الثانية الأبرز في "آسكيره"، تجده في الغالب إما يقرأ أو ينفض الغبار عن كتبه، وكان من القلائل في القرية الذين يمتلكون جهاز راديو من نوع "كَرَيْرْ"، يحتل مكانة بارزة في خيمته التي كان "شدَّاد" يشرف على نظامها بكل اعتناء...

كان يقال إن محطاته المفضلة هي "صوت العرب" من القاهرة، وإذاعة طنجة، التي كانت حينها تخوض في جدل مستمرٍ مع إذاعة نواكشوط حول استقلال موريتانيا، الذي كان محلّ خلاف مع المملكة المغربية...

مِن بين الشخصيات الرمزية في "آسكيره"، لا مناصَ من ذكر "عيشَ سي"، وهي امرأة طويلة القامة، ممتلئة الجسد، كانت تعيش في كنف أهل أحمد يورَ، لم تكن في الأصل من "ابير التورس"، لكن حين تعرَّفت عليها كانت شخصية أساسية في المشهد المحلي، خاصة بالنسبة للأطفال الذين كانت تبيع لهم بعض الأشياء الصغيرة آنذاك، ليست لدي أي فكرة عمّا صار إليه أمرها بعد ذلك...

بعد قضاء عطلة مدرسية في نواحي "أبي تلميت"، عُدت إلى "ابير التورس"، لم يَعُد "فالْ لامينْ" موجودًا في المدرسة، فقد تم تحويله إلى مكان لا أعرف أين، وتم استبداله بشاب وَدود، ينحدر مِن القرية، هو "المختارْ أمُّو بن أحمدُّو بن المختار... "

لقد انتهت المشاكل... كانت السنة الثانية من الابتدائية (CP2) تبشّر ببداية جيدة، فلم أعُد، بين أطفال القرية، ذلك الطفل الخَجول القادمُ مِن البادية، لقد تخلَّصت من كل عُقَد النقص، ولم يدَّخر معلمي الجديد جهداً في أن يكون الأمر كذلك، فله مني كامل الاحترام والتقدير.

كان "كْرَّاي" ما يزال يدرّس مادة اللغة العربية، لكنه كان أكثر تواجُداً في محظرته، حيث كان يُعلّم أشياء أكثر أهميةً من أسماء أصابع اليد الخمسة ...

يُعتبر "المختار أمو"، بِحَق، من المُعلمين الموريتانيين ذوي المسيرة المهنية الأكثر استقرارًا، ففي عام 1999، أي قبل سنة من تقاعده، وجدته في نفس الفصل الذي درَّسني فيه، والذي لم يُغادره منذ لقائنا ذات صباح جميل مِن العام الدراسي 1963-1964، إنه رقم قياسي لا نظير له !

ورجوعاً إلى بعض التفاصيل، أذكُر تقليداً اجتماعياً أصبح اليوم في طي النسيان، وكان شائعًا في أوساط مجتمع "البيظان"، لا سيما في "ابير التورس"، وهو ما يسمى بـ "الأعصَار"، وهي نوادٍ مغلقةٌ تتكون من أشخاص في نفس العمر، وتُعطى أسماء ليس لها بالضرورة أية دلالة تاريخية أو ثقافية. كانت "الأعصار " تشكل إطارًا مثاليًاً للتضامن الاجتماعي بكافة أبعاده.

ما زلت أذكر أسماء بعض "الأعصار" الشهيرة في القرية مثل "أولاد دَمْبَ" و"أولاد صَمْبَ" و"مالي" و"آمْريكْ" ...كان "العَصرُ" الأول يضم حوالي عشرين رجلاً تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين، وهو"عصرُ" والدي، وقد كانت خيمتُنا مقرّه الرئيسي ... ومِن بين أعضاء هذا العصر: "بَبَّ بن سيدي بن التاه" و"عبد الله بن أحمدو" و"مامون بن اسلامَه" و"حمُّودي" و"مُحلّلٌ بن الفُضيَل" و"امَّين وبن سيدي بن محمذن" و"أحمدُّو مامين" والمرحوم "محمد بابَ بن محمذن بابَ" و"أحمدو سالم بن يَيِّينْ... "

Protected

أما عصر "مالي" فقد كان من أعضائه مُعلمي "المختار أمُّو" و"عبدو بن اميَيْ" و"عبدو بن الفُضيل" و" دُودُو بن الميدَّاح... "

أما أنا وأصدقائي، فقد شكَّلنا عصر"آمْريك" لنلعب من خلاله دوراً مبكراً ... كان "إبراهيم بن أمينُو" زعيمَنا بلا مُنازع، وقد كانت والدته الطيبة "عيشَه" تستقبلنا بعناية كبيرة لا تتناسب مع مكانتنا الحقيقية...

لا تسمح لي الذاكرة بتصنيف جميع رجال القرية ضمن "أعصارهم"، فلم أعد أذكر في أي "عَصر" أصنّف شخصياتٍ بارزةً مثل "مُحمَّدِّن بن مُحمد بابَ" الملقب ب"السَّيّدْ". كان "محمدن" رجلاً جذَّاباً وخطيباً، وكنت كثيرًا ما أسمع مَن هم حولي يُثنون على ما يتحلَّى به من كرم وإباء...

كما لا أذكر في أي "عصر" يُصَنَّفُ الأخوان: أحمد وعبد الله ابنَا حمدَن، وهما "مرابطان" كبيران كانت لهما سلطة حقيقية على عالَم الأفاعي والعقارب ... فالتعاويذُ التي يصنعانِها ضد سمومها كانت تتحدى العِلم والطبَ الحديثَين، ولا تزال هذه المنحةُ الربانيةُ كلمةً باقيةً في عقِبهم حتى يومنا هذا...

في هذه الفترة، كان محمد فال "ببَّها" نائباً في الجمعية الوطنية، في حين كان أخواه الأصغران "أحمد" المعروف ب "احْميدِيت" و"عبدُو" موظفَين في الدولة، وكانوا يأتون القرية في الإجازات وعُطَلِ نهاية الأسبوع...

لقد كان قدوم أحد أبناء القاضي الجليل مناسبةً يتوافد فيها العشرات من كل مكان، طلباً لمختلف الحاجات...

وهكذا، مرَّ العام الدراسي 1963-1964 دون مشاكل، وانتهى بنتائجَ مرضية، وكان ذلك آخرَ عام دراسي لي في "ابير التورس... "

بعدها، انتقلت مع جدّتي إلى مدينة "المذرذرة"، حيث اشترَت منزلَ "الحُسين بن بلال الجُّولِي" مُقابل مائتَي ألفِ افرنكٍ غربِ إفريقي...

وهنا، بدأ فصلٌ جديدٌ وطويلٌ من حياتي الدراسية: البيان رقم 2...